

لسادة بيزنطة وسيداتها

عما مضى وما يمضي وما سيكون

فهو وإن لم يُحدد ماذا يريد أن يكون، فإن من الواضح ضمناً أن الشيء الذي سيجلس على غصن ذهبي لا بد أن يكون طائراً، أي كائناً طبيعياً. ولسنا ندرى إن كان الشاعر قد قصد إلى هذه المفارقة الساخرة أم لا، لكن المحصلة هي أنه من العسير عليه في النهاية أن يتخلص تماماً من الإطار المحاكاتي - الطبيعي لرؤيته الفنية، ذلك الإطار الذي يظل ذا حضور قوى في الثقافة الأوروبية.

نعود من هذا إذن بنتيجة مؤداها أن الرحلة إلى الآخر، سواء عند البحري أو عند بيتس، لا يتحقق منها سوى آثارها، تتحقق القصائد كمشاريع، كمخططات لأحلام ومقاربات للمستحيل. يعود الشاعران بقصيديتهما كشاهدين على محاولة الوصول، وبتجربتين ذاتيتين حفرتا مكاناً لهما في عمق التاريخ واختلافات الثقافة. فالبحري يأتي إلى آثار فارس بحثاً عن تشابهه معها، لكنه في خضم البحث يكتشف اختلافه عنها نتيجة لمقارنته بين الثقافتين العربية والفارسية. وكذلك يفعل بيتس في بحثه عن المختلف في حضارة بيزنطه، التي يعدها حضارة أوروبية أساساً. ونحن سواء اتفقنا أم لم نتفق مع مقارنة الشاعرين وتقييمهما لحضارتيهما وحضارة الآخر، فإننا نصل إلى أن المقارنة في حد ذاتها يمكن أن تكون منهجاً إدراكياً ضرورياً للخروج من أسر الذات والتعرف على غيرها وما يميزها عن غيرها في الوقت نفسه. فالشاعران يجريان عمليات مقارنة بالغة الأهمية يتوصلان من خلالها إلى تصورات ورؤى حول نفسيهما وثقافتيهما إزاء ما هو متفق مع النفس أو الثقافة أو مختلف عنهما، رؤى وتصورات لم يكونا ليتوصلا إليها لولا المقارنة. ونحن بدورنا في الدراسات المقارنة إنما نفيد، أو ينبغي أن نفيد، من هذا المنهج الإدراكي كوسيلة للتعرف على ما يصل الأعمال الأدبية ببعضها ويميزها عن غيرها في الوقت نفسه. فالمقارنة لا تفضي بنا لا إلى التشابه وحده، وإنما إلى الاختلاف أيضاً.